المسلم فى نظر الرسول

تطالع الناس مع شمس هذا اليوم ذكرى كان لها أبعد الأثر فى حياة الإسلام . بل فى حياة الناس أجمعين ، هى ذكرى الميلاد لرسول الإسلام محمد صلى الله عليه وسلم ، ويبتهج المسلمون بهذه الذكرى فى مشارق الأرض ومغاربها ، فيقيمون الحفلات ، وينصبون الزينات ، ويرفعون الأعلام ، ويضيئون الأنوار ، وحُقَّ لهم أن يبتهجوا ، فإن نبى الإسلام كان هو الرحمة التى تنزلت بها السماء على الأرض ، والنور الذى أشرق على القلوب فأحياها ، وعلى الأخلاق فقومها ، وعلى الأعمال فهذبها .

ولعل خير ما أسوقه فى حديث اليوم الذى يتشرف بهذه الذكرى ، أن أذكر لحضراتكم تحديد نبى الإسلام لمعنى الاسلام :

يظن كثير من الناس أن الإسلام لفظ يُلاك باللسان ، وحسب المرء ليكون مسلماً أن ينطق بالشهادتين ، وأن يتردد إلى المساجد ، وأن يكثر بلسانه من الدعوة إلى الفضيلة ، والتنفير من الرذيلة ، وإن كان مع ذلك يؤذى الناس بلسانه : يسب ، ويغتاب ، ويكذب ، ويشى ، وينم ، ويخدع ، ويؤذيهم بقلبه : يحقد ، ويبغض

ويكيد، ويحسد ، ويؤذيهم بيده : يقتل ،ويسرق ،وينتهب ،ويهتك ، ويشير ويكتب : مثل هذا لا يرى نبى الإسلام أنه مسلم حقاً ، فهو يقول : « المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده » . « ليس المسلم بطعَّان ولا لعَّان ولا فاحش ولا بذىء» « المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يُسلمه » . « بحسب امرىء من الشر أن يحقر أخاه المسلم . كل المسلم على المسلم حرام . دمه وماله وعرضه » وقيل له صلى الله عليه وسلم : إن فلانة تصوم نهارها وتقوم ليلها ، وتؤذى جيرانها بلسانها فقال : لا خير فيها هى من أهل النار » ويقول : أربع من كنَّ فيه كان منافقاً خالصاً ومن كانت فيه خصلة منهن كان فيه خصلة من النفاق حتى يدعها : إذا اؤتمن خان ، وإذا حدث كذب ، وإذا عاهد غدر ، وإذا خاصم فجر » . « تجد من شرار الناس يوم القيامة عند الله ذا الوجهين الذى يأتى هؤلاء بوجه ، وهؤلاء بوجه » ويقول «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه » . « ترى المؤمنين فى تراحمهم وتوادهم وتعاطفهم كمثل الجسد إذا اشتكى عضو منه تداعى له سائر جسده بالسهر والحمى » .

هذا هو معنى الاسلام فى نظر رسول الاسلام .

قل آمنت بالله ثم استقم

« روى مسلم عن سفيان بن عبد الله الثقفى قال : قلت لرسول الله : قل لى فى الاسلام قولا لا أسأل عنه أحداً بعدك . قال : قل آمنت بالله ثم استقم »

* * *

صحابى جليل ، صافى القلب ، نقى الفطرة ، يرغب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يقول له فى معنى الاسلام قولا جامعاً واضحاً ، فيظفر ، وتظفر البشرية معه ، بهذا الدستور العظيم فى كلمتين اثنتين هما أساس السعادة ، ونبراس الهداية : قل آمنت بالله ، ثم استقم .

الايمان بالله كلمة جامعة تشمل كل العقائد الصحيحة التى جاء بها رسل الله : تصديق بالقلب ، وإقرار باللسان ، وتأثر صادق بجمال الله وجلاله ، وثقة بتدبيره فى رحمته وعدله : برحمته أرسل الرسل فلم يترك الناس إلى عقولهم التى قد تتأثر بشهواتهم ورغباتهم ، وبعدله أعد دار الجزاء يلقى فيها المحسن إحسانه ، والمسىء إساءته « فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره » .

والاستقامة هى التزام المنهج الذى لا عوج فيه ولا التواء. وقد عبر عنه فى القرآن « بالصراط المستقيم » وهو لفظ شامل لكل ماهو حق وفضيلة: يكون فى العقيدة، وفى الخلق، وفى العمل:

هو فى العقيدة خضوع للحجة، ونزول على حكم البرهان، وإكبار لشأن العقل واعتداد بنعمة الله فيه، وثقة بأن الله ما كرم ابن آدم إلا به، وفناء فى الحق، واحتمال للأذى فى سبيله — فليس من الصراط المستقيم أن تهيم فى أودية الضلال، وأن تنزل على حكم الأوهام، وأن تتقبل الخرافات التى ما أنزل الله بها من سلطان، وليس من الصراط المستقيم أن تؤمن بجميع ما ورثته عن الآباء والأجداد من غير نظر ولا تفكير ولو كانوا لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون، وليس من الصراط المستقيم أن تستكبر عن الحق، ولا أن تعرض عنه وأنت به عليم، وليس من الصراط المستقيم أن تضع فى سبيله العقبات، وتقيم العراقيل، وليس من الصراط المستقيم أن تقف منه موقف الضعف والاستكانة، فلا تنصره ولا تؤازره مكتفياً بأن « ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن » و « أن المقادير تجرى فى أعنتها » و « عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل » وأمثال هذه الكلمات التى خرج الناس بها عن مواضعها واستعملوها على غير وجهها، وأصبحت فى عصور الضعف والاستسلام، من آيات الايمان والاسلام!

وهو فى الخلق وسط بين طرفين : لاجبن ولا تهور ، لا جزع ولا استكانة لا إسراف ولا تقتير ، لا تسرّع ولا تبلد ، ولـكن قوام بين ذلك تصلح به النفوس ، وتستقيم به الأمور .

وهو فى العمل اعتدال لا يعرف الافراط ولا التفريط : فهؤلاء الذين يكلفون أنفسهم مالا يطيقون من الأعمال ليسوا على الصراط المستقيم ، وهؤلاء الذين يتحللون من جميع الواجبـات ليسوا على الصراط المستقيم ، وهؤلاء الذين يحرّمون على أنفسهم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق ليسوا على الصراط المستقيم ، وهؤلاء الذين يستبيحون لأنفسهم جميع الفواحش ما ظهر منها وما بطن ليسوا على الصراط المستقيم ، وهكذا كان الاسلام فى عقـائده وأخلاقه وأعماله هو الصراط المستقيم « قل إننى هدانى ربى إلى صراط مستقيم ديناً قِيَماً ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين » . « وأن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ، ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون » .

ولأمر ما جعل الله أول دعوة علّمها الانسان، فى أول سورة من القرآن ، وطلب منه أن يتوجه إليه بهـا فى كل صلاة هى قوله عز وجل « اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين » .

الحياء هو الدين كله

« عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « إن لكل دين خلقا ، وخلق الاسلام الحياء »

وعنه عليه الصلاة والسلام أنه قال « الحياء شعبة من الإيمان ولا إيمان لمن لا حياء له »

وعنه أنه قال « الحياء والايمان قرينان ، فإذا رفع أحدهما رفع الآخر »

وذكر الحياء فى مجلسه صلى الله عليه وسلم فقال بعض الحاضرين: يا رسول الله . الحياء من الدين ؟ فقال « بل هو الدين كله » .

* * *

الحياء خلق يبعث فى النفس بغض القبيح ، ويحول بين صاحبه وبين الفحش والبذاء ، وقد رفع النبي صلى الله عليه وسلم من شأن الحياء ، فجعله خلق الاسلام ، ثم رفعه ، فجعله شعبة من الايمان ، ثم رفعه فجعله قريناً للإيمان : إذا رفع أحدهما رفع الآخر ، ثم رفعه فجعله الدين كله . وكيف لا يكون بهذه المنزلة وهو يقتضى ما يقتضيه الايمان ويأبى ما يأباه الايمان . فالحياء من الله — الذى هو أثر لمعرفة الله — يمنع من مخالفة أمر الله ويقضى بطاعته ،

ويغرس فى النفس مراقبته فى السر والعلن ، فصاحب الحياء لا يظلم ولا يسرق ، ولا يأتى بهتان لأنه يرى الله معه أينما كان ، ومتى كان وكيفما كان . صاحب الحياء يرى نعمة الله عليه وعظمته فى خلقه ، فيمنعه حياء النعمة وحياء الجلال من ارتكاب ما يغضبه والتقصير فيما يرضيه . والحياء فى النعمة شكر ، وفى المصيبة صبر ، وفى المعصية مراقبة ، وفى الأقوال صدق ، وفى المعاملة شرف ، وفى العرض عفّة ، وفى الحرب شجاعة ، وفى الأموال سخاء ، وفى القضاء عدل ، وفى الودائع أمانة ، وفى الكروب رحمة ، وفى المظالم إنصاف ، وفى المعصية ندم وتوبة . وهكذا يجمع الحياء من الله كل الفضائل التى يطلبها الايمان بالله ، فاذا وجد الحياء وجد الإيمان .

أما الذى حرم فضيلة الحياء فانه قد حرم معرفة الله . فليس له من خوفه ولا محبته ولا طمعه فى رضاه ما يمنعه عن محاربة الله بارتكاب ما يغضبه والاستهانة بما يرضيه ، فينساب فى شهوته ويفعل الرذيلة على أنها فضيلة : يجاهر بالاثم ويفتخر بالعدوان ، وقد صح فيه قول النبى صلى الله عليه وسلم « إذا لم تستح فاصنع ما شئت » فغشّ التاجر من عدم الحياء ، وكذب المحدث من عدم الحياء ، والنفاق من عدم الحياء ، والنميمة بين الناس ، وإفساد أواصر الزوجية والقرابة والصداقة من عدم الحياء ، وعلى الجملة فايثار هوى النفس ، وإيثار رضا الناس على حبّ الله ورضاه من عدم الحياء .

وهكذا تجد كلّ عمل يمقته الايمان ناشئا من عدم الحياء .

وإذا كان الحياء من الايمان ، والايمان خير كله ، فالحياء خير كله : فعدم الأمر بالمعروف ، وعدم النهى عن المنكر ، وعدم تقرير الحق ، وعدم القيام إلى الصلاة وأنت فى مجلس المتمدينين ، ليس من الحياء فى شىء ، لأنه ليس من الايمان فى شىء ، وإنما هو جبن فى النفس ، وضعف فى الايمان ، والتماس لرضا المخلوق بغضب الخالق ، وقد كان النبى صلى الله عليه وسلم أشدّ حياء من العذراء وكان أشد الناس غضباً عند انتهاك حرمات الله أو التقصير فى واجبات الله ، وقد صح عن عائشه رضى الله تعالى عنها أنها قالت : رحم الله نساء الأنصار ، لم يمنعهن الحياء أن يسألن عن أمر دينهن وأن يتفقهن فى الدين . وصح أن امرأة جاءت إلى النبى صلى الله عليه وسلم فعرضت نفسها عليه — تريد الزواج به — فقالت ابنته : ما أقل حياءَها . فقال : هى خير منك . عرضت نفسها على رسول الله والحياء خير كله .

خلال المنافقين

« عن عبد الله بن عمرو قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أربع من كنّ فيه كان منافقا خالصاً ، ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها : إذا اؤتمن خان ، وإذا حدث كذب، وإذا عاهد غدَر ، وإذا خاصم فجر ».

* * *

النفاق شر الاخلاق وجرثومة الفساد، لا يعرفه إلا أرباب النوايا الخبيثة ، والأغراض الفاسدة ، وما ابتُلى النبي صلى الله عليه وسلم فى حياته بمثل ما ابتلى بهذا الصنف من الخلق الذى ابتلى الله به الخيرَ والصلاح فى كل زمان ومكان : كان الكافر واضحاً فى شأنه كله ، واضحاً فى تكذيبه ، واضحاً فى عتوّه ، واضحاً فى حربه ، فكان اتقاؤه سهلاً ميسورا . أما المنافق فهو سلم فى ظاهره ، حرب فى باطنه ، حلو فى لسانه ، مر فى نواياه، مشرق فى وجهه ، مظلم فى طويته ، له مع هؤلاء وجه ، وله مع هؤلاء وجه ، لا تُعرف مسالكه حتى يُتقى شره ، وليس له خير حتى يرتجى ، ولولا أن الله العليم بخفايا النفوس تكفّل لنبيّه باكمال الدين واتمام النعمة ، وكان يكشف له فى سبيل ذلك عن النفاق وغشه ، ومسالكه وأهدافه. لما

استقامت دعوته ، ولما تمت رسالته . وها هوذا القرآن الكريم ، لا تكاد تجد سورة من سوره لم تضع العلامة الحمراء على بيوتهم حتى لقد نزلت فيهم سورة كاملة ، عرفت بسورة (المنافقون) ، بين الله فيها خلالهم وسوء نياتهم . والنبي صلى الله عليه وسلم كان يخشى على أمته ما كان يخشى على نفسه ، ويحب لها مايحب لنفسه « عزيز عليه ماعنتم حريص عليكم بالمؤمنين رءوف رحيم » فبين لها بعض خلال المنافقين كى تحترس منهم وكى لا تقع فى مخالبهم :

الخيانة فى الأمانة : الأمانة كل ما وكل إلى الانسان حفظه ورعايته من نفس أو مال أو عرض أو علم أو قضاء أو شهادة أو مصلحة . فأهماله أو التهاون فيه أو العبث به أو صرفه إلى غير وجهه ، خيانة فى الأمانة .

الكذب فى الحديث : أقدر الله الانسان على التحدث ليصوّر الواقع بحقيقته للناس ، فان كان صالحا أقروه وضاعفوه ، وإن كان فاسدا اصلحوه أو أزالوه . فتصوير الواقع بغير حقيقته مسخٌ لوجه الوجود الحق ، ونشر لسموم الأباطيل ، وتضليل للناس وتحريض على الفساد ، وزعزعة للثقة بين الناس . وتشويش على العاملين الصادقين .

الغدر فى العهد : العهود هى الارتباطات التى تحصل بين الناس على معوج يقومونه أو فاسد يصلحونه أو حق يركزونه ، أو

مصلحة يحققونها ، ومنها ما يأخذه الانسان على نفسه من فعل الخير والصلاح إذا آتاه الله من فضله علماً أو مالا أو جاها أو ولاية والنكوص عن هذه الوعود إيثارا لمنفعة شخصية أو ركونا للدعة غدر للعهد .

الفجور فى المخاصمة : المخاصمة شأن لا بد للناس منه إذ كانوا مطبوعين على اختلاف الآراء ، ولكن يجب أن يكون لها حد تقف عنده فيحل الوئام محل الخصام، ويتجه الجميع إلى الصالح العام . والاسترسالُ مع الشهوة والغضب بالكيد وخلق التهم وايجاد المشاكل حتى تذهب الأموال ، وتزهق الأرواح ، وتضيع المصالح فجور فى الخصومة .

* * *

أيها المؤتمنون ، أيها المتحدثون، أيها المعاهدون ، أيها المتخاصمون: اسمعوا قول الله مصدقا لقول رسولكم « لا تخونوا الله والرسول وتخونوا أماناتكم وأنتم تعلمون » « إنما يفترى الكذب الذين لا يؤمنون بآيات الله » « وأوفوا بالعهد إن العهد كان مسئولا » « ومن الناس من يعجبك قوله فى الحياة الدنيا ويشهد الله على ما فى قلبه وهو ألد الخصام . وإذا تولىَّ سعىَ فى الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل والله لا يحب الفساد . وإذا قيل له اتق الله أخذته العزة بالاثم فحسبه جهنم ولبئس المهاد » .

دستور فى كلمات

« عن ابن مسعود رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : اعبد الله ولا تشرك به شيئا ، وزُل مع القرآن أينما زال واقبل الحق ممن جاء به من صغير أو كبير وإن كان بغيضا ، واردد الباطل على من جاء به من صغير أو كبير وإن كان حبيبا أو قريبا ».

* * *

أربع وصايا أوصى بها الرسول الكريم صلوات الله وسلامه عليه ، هى أركان أربعة للدستور الذى يجب على الإنسان أن يسير على هديه .

أولها : أن يعبد الله لايشرك به شيئا : يعبده لأنه مدين له بالخلق والإيجاد ، مدين له بالهدى والإرشاد ، مدين له بكل نعمة من نعم هذه الحياة ، فى صحته ، فى ماله ، فى أهله وولده ، فى جوارحه فى شعوره وإدراكه ، فى عواطفه وإحساساته ، فى منامه ويقظته ، فى حله وترحاله ؛ فمن آمن بالله على هذا النحو ، وتمثله حين يعبده مُنْعِما بهذه النعم وغيرها فهو جدير بأن يمتلىء به نفسا ، وأن يطمئن إليه قلبا ، وألا يشرك به أحدا .

ثانيها : أن يجعل القرآن إمامه ، يأتمر بأمره ، وينتهى بنهيه ، ويتخلق بخلقه ، ويتدبر هداه ، والقرآن نور مبين ، وهدى ورحمة للعالمين ، هو أسمى تكريم كرم الله به بنى آدم : أخذ بيد العقل فأراه السبيل ، وهيأ له الطريق المستقيم ، وسما به وأعلى من شأنه ، وحكَّمه فى كل شىء . هداية وعلم وتشريع وفن وجمال ما تزال تتكشف يوما بعد يوم ، وجيلا بعد جيل ، فلو أن امرأ جعل هذا الكتاب قبلته ، يدرسه ويتفهمه ويعمل به ويتخلق بخلقه ، ويلتمس منه لذة عقله ، وكمال روحه ، ومدد معرفته ، ورباط قلبه ، وصفاء نفسه ، وثبات إيمانه ويقينه ، ونوره الذى يهتدى به فى كل شأن من شئون حياته ، لوجد فيه ذلك كله خالصا سائغا لا تشوبه شائبة ، ولا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه !

ثالثها : أن تقبل الحق من حيث أتاك لأن الحق هو حكم العقل وهو الواقع الصحيح فى كل شىء : إذا رأيت النور فقلت هذا ظلام فقد خالفت الواقع وظلمت عقلك قبل أن تظلم الحق ، وإذا نظرت إلى هذه الصنعة المحكمة الشاهدة بعظمة الخالق ، ثم لم تؤمن بالخالق فقد ظلمت عقلك وخالفت الواقع والحق ، إذا خضعت لغير الله ، أو حكمت بغير ماحكم الله ، أو خفت غير الله ، أو عبدت غير الله فقد جنيت على نفسك وعقلك وجنيت على الواقع والحق ، إذا اتبعت الشهوات ، ونزلت على حكم الهوى والرغبات فقد أسأت

إلى نفسك وإلى الواقع والحق . إذا رفضت الحق لأنه جاءك من صغير أو من بغيض ، فقد ظلمت عقلك وظلمت الواقع والحق ، وهكذا . . .

رابعها : أن ترد الباطل من حيث أتاك ، لأن الباطل فساد وشر وقبح والتواء ، والعقل لا يكون إلا فى جانب الصلاح والخير والجمال والاستقامة ، وللباطل زخرف يخلب أبصار الضعفاء ، ويخلع قلوب غير المؤمنين ، لأن المؤمن يعلم أن الباطل لا يقوم بقوته ، ولا يبقى لمعنى فيه يستدعى بقاءه ، ولكنه يقوم حيث تقيمه القوة أو الخديعة أو الاغراء ، فاذا زالت هذه العوامل زال وانهار بنيانه ، ولذلك كان أضعف من أن يخدع المؤمن أو يرهب المؤمن ، وإن إبليس هو داعية الباطل وعنوانه وفيه يقول الله عز وجل « إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون » .

* * *

أين نحن من هذا الدستور الذى جمعه رسول الله صلى الله عليه وسلم فى كلمات وصاغه فى جمل معدودات ؟ فينا من يؤمن بالله إيمانا يجرى به اللسان ، أما القلب فهواء ، وأما الأفعال فنفاق ورياء . فينا من يعبد الله عبادة رسوم ومظاهر وأشكال بينما يعبد الهوى والرغبة والرهبة عبادة إخلاص وخوف ورجاء . فينا من يهجر القرآن ولا يعترف بما له من جلال وجمال . فينا من يعرف حكم

القرآن ولا ينزل على حكم القرآن . فينا من يعرف أخلاق القرآن ولا يتخلق بأخلاق القرآن . فينا من يحكم على الحق بالرجال ، ولا يحكم على الرجال بالحق . فينا من يقبل الباطل لأن القائل به كبير أو قريب أو حبيب ، ومن يرد الحق لأن القائل به صغير أو بعيد أو بغيض .

ألا إن الحياة الطيبة والسعادة المأمونة فى الرجوع إلى هذا الدستور النبوى الكريم : عبادة لله وحده ، وتقديس للقرآن، واحترام للحق ، واحتقار للباطل. هذا هو السبيل .

obeikandl.com

كلكم راع ومسئول

عن عبد الله بن عمر رضى الله عنه قال . سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « كُلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته : الامام راع ومسئول عن رعيته . والرجل راع فى أهله ومسئول عن رعيته ، والمرأة راعية فى بيت زوجها ومسئولة عن رعيتها ، والخادم راع فى مال سيده ومسئول عن رعيته ، والرجل راع فى مال أبيه ومسئول عن رعيته . وكلكم راعٍ ومسئول عن رعيته .

* * *

حديث عظيم الشأن . له خطره فى تركيز الحياة الاجتماعية . واسعاد الجماعات البشرية فهو يشير إلى أن الحياة ليست وَحدَاتٍ متناثرةً مهملة لايتصل بعضها ببعض . ولا يُسأل بعضها عن بعض وإنما هى وَحداتٌ متساندة متضامنة . دعامتها التعاون فى القيام بالحقوق والواجبات ، والإحسان فى الأعمال ، والرعاية لما تحت اليد من نفوس وأموال ومصالح . ويشير إلى أن كل إنسان تمّ رُشْده ، وكملت أهليته قد وُكِلَ اليه شأن فيها يدبره ويرعاه ، كلٌّ بحسب مركزه فى أمته وبيئته ، وسيُسأل عنه أمام الله وأمام الامة

وأمام الأبناء والأحفاد ، ونكتب ما قدموا وآثارهم وكلَّ شيء أحصيناه فى إمام مبين » ، وقد صور لنا الرسول هذه الرعاية فى جانبين من جوانب الأمة هما منها بمنزلة القلب من الجسد أو القطب من الرحى . أحدهما : جانب الرياسة الكبرى ويمثلها الحاكم فى مملكته ، والآخر : جانب الرياسة الصغرى ويمثلها أعضاء الأسرة فى البيت .

فالحاكم : وُكِل اليه شأن الأمة يدبِّر أمرها ، ويحفظ حقوقها ، ويقيم أَوَدَها ، والعدلَ فيها ، ويُصلح شأنَها ، ويُطمئنها بالقضاء على عوامل الشر والفساد ، وهو مسئول عن كل شيء فيها ، وعن كل فرد منها .

والرجل : وَكِلَ إليه رعاية أهله بالانفاق عليهم وتربيتهم وتعليمهم ، وحسن عشرتهم ، والاقتصاد فيما يملك من أموال حتى لا يتركهم فريسة لغوائل الدهر .

والمرأة : أقامها الله فى بيت زوجها ووَكل إليها حسنَ التدبير ، وإصلاح المعاش ، والهَيْمنة على الأبناءِ ، وتعهدهم بما يجعل منهم رجالا مخلصين لبلادهم ، خادمين لأمتهم .

والخادم : أقامه الله فى خدمة صاحبه ووكل إليه العمل فى شئونه الخاصة وكلفه الإحسان ، والأمانة ، والاخلاص .

والولد : جعله الله خلفا عن أبيه : يحفظ المال ، ويرعى الأسرة والكرامة .

وبين هذين الجانبين درجات متعددة فى الرعاية والمسئولية : فالعمدة راع فى بلده ومسئول عن رعيته ، والمدير راع فى مديريته ومسئول عن رعيته ، والمدرس راع فى فصله ومسئول عن رعيته ، والناظر راع فى مدرسته ومسئول عن رعيته ، والصانع راع فى معمله ومسئول عن رعيته .

وهكذا كل رئيس فى مصلحة أو عمل : فكلكم راع ومسئول عن رعيته .

دعائم الحكم الصالح

« عن عامر بن أبي موسى عن أبيه قال لما بعثه رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعاذ بن جبل إلى اليمن قال لهما : يسّرا ولا تعسّرا وبشّرا ولا تنفرا ، وتطاوعا ولا تختلفا » .

* * *

للحكم العادل الرحيم المثمر دعائم لا يقوم إلا عليها ، ولا يدوم إلا بها، من أهمها هذه الثلاث التي أوصى بها الرسول واليمين من ولاته على الأقاليم ، وكانت تلك عادة رسول الله صلى الله عليه وسلم « إنه كان بالمؤمنين رءوفاً رحيما » : يزود الحكام والولاة بنصائحه ، ويأمرهم أن يرعوا كل ما يُصلح أمر الشعب ، ويُشعره بالاطمئنان والهدوء . ويمكّنه من القيام بواجباته في الحياة على نحو يحقق له العزة والسعادة والرفاهية .

وأول هذه الدعائم الثلاث « التيسير وعدم التعسير » . وتلك شرعة شرعها الله في دينه « وما جعل عليكم في الدين من حرج » « لا يكلف الله نفساً إلا وسعها » . « يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر » فأجدر بها أن يتخذها الناس أساساً في دنياهم .

إن الحاكم العادل الحاذق هو الذي يعلم أن للشعوب طاقة ،

وللأفراد قدرة ، وللاحتمال نهاية ، فلا يكلف شعبه مالا يطيق من ضرائب فادحة ، أو نظم جامحة ، أو قوانين صارمة ، ولا يكبت فى أفراده معانى الحرمان واليأس ، ولا يحجر على حرية القول والكتابة والرأى فيما لا يضر بالصالح العام ، فإن النفوس إذا امتلأت بالكبت ، وشعرت بالضغط ، ولم تجد فيما تراه حقاً لها متنفساً ، كان أمرها بين اثنتين كلتاهما النار : إما موت الذلة والإرهاق ، والخيبة والإخفاق ، ويومئذ تخور قواها فلا تقاوم ، ولا تنتج ، ولكن تذوب ، وتضمحل ، وتكون غثاء كغثاء السيل تتداعى عليها الأمم كما تتداعى الآكلة إلى قصعتها ، وإما عاصفة عاتية ، تزلزل الأمن ، وتنشر الفوضى ، وتفسد النظام !

وإن مجال التيسير أمام الحاكم العادل لفسيح : تخفيف وطأة الحياة على الفقراء تيسير ، محاربة الغلاء تيسير ، العناية الصادقة بمعالجة المرضى تيسير ، إعطاء العاملين حقوقهم تيسير ، فتح أبواب المدارس والمعاهد تيسير ، إصلاح خطط التعليم وتهذيب مناهجه تيسير ، تبسيط الإجراءات الادارية والقضائية تيسير . وهكذا .

الدعامة الثانية من دعائم الحكم العادل فى نظر الرسول هى : « التبشير وعدم التنفير » ، فإن الحاكم والرئيس إذا كان طلق الوجه ـ اللسان ، حريصا على أن تحيا الآمال فى النفوس ، استطاع أن بر بواعث العمل ، وأن ينشط إلى الإنتاج ، وأن يضاعف ات ، أما الحاكم الفظ ، الغليظ القلب ، ذو الوجه العبوس ،

الذى يعتمد على الارهاب والتخويف ، والوعيد والتهديد ، فأجدر به أن يَنْفرَ الشعبُ منه ، وتموتَ فى أفراده دوافعُ الرغبة ، وبواعثُ الأمل .

أما الدّعامة الثالثة فهى شأن من شئون الحكام المتعاونين بعضهم مع بعض : « تطاوعا ولا تختلفا » هذا هو عنوانها الذى صورها به الرسول ، ولا تستطيع أمة يتنازع حكامها ، ويتخاصم قادتها ، ويتخالف أولوا الرأى فيها ، أن تسلك فى أية ناحية من نواحيها سبيلا مستقيما ، ولا أن ترقى إلى أى شأوٍ تبتغيه ، ذلك بأن كل حاكم من هؤلاء الحكام او القادة المتخالفين سيتبعه فريق من الأمة ، فيسرى داء الخصومة ، وتنتقل عدوى التنازع إلى الشعب فى كل مصنع ، وفى كل معهد ، وفى كل متجر ، وفى كل بيت ، ويومئذ تصير الأمة أحزاباً وشيعا « كل حزب بما لديهم فرحون » ولا أريد أن أستوحى التاريخ مُثُلاً لما تصاب به أمةٌ متفرقة متنازعة متقطعة ، فإن فى حالتنا الراهنة مايغنى عن كل تمثيل .

* * *

هذه وصية نبيكم وحاكمكم الأول لولاته ، وهى السياسة لمن أراد السياسة ، وهى الرشاد لمن أراد الرشاد .

« يأيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم » « وأطيعوا الله ورسوله ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم واصبروا إن الله مع الصابرين »

إلى حكام الأقاليم

« عن معاذ رضى الله عنه قال : بعثنى رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى اليمن فقال إنك تأتى قوما من أهل الكتاب فادعهم إلى شهادة أن لاإله إلاّ الله وأنى رسول الله ، فإن هم أطاعوا لذلك فأعلمهم أن الله افترض عليهم خمسَ صلوات فى كل يوم وليلة ، فإن هم أطاعوا لذلك فأعلمهم أن الله افترض عليهم صدقة ، تؤخذ من أغنيائهم فترد على فقرائهم ، فإن هم أطاعوا لذلك، فأياك وكرائم أموالهم ، واتق دعوة المظلوم . فانه ليس بينها و بين الله حجاب »

* * *

بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم معاذ بن جبل إلى اليمن ، وزوّده جرياً على سنته فى تزويد الأمراء والولاة الذين كان يرسلهم إلى الاقاليم بنصائحه الغالية ، وإرشاداته الحكيمة . .

فذكر له أولا : الدعوة إلى الايمانِ بالله ورسوله ، والايمانُ بالله ورسوله أساس الخير كله ، وأساس الفضائل جميعها ، فلاخير فى عمل ولاخلق ليس مصدرهما الايمان وإنما مصدرهما اعتبار من الاعتبارات الدنيوية ، التى لادوام لها ولا استقرار « ما كان لله دام واتصل ،

وما كان لغير الله انبتَّ وانقطع ، وليس الايمان كلمةً تقال وإنما هو معرفة يقينية تريك جمالَ الله فتستحى أن تحب غيرَ الله، وتريك جلال الله فتستحى أن تخضع لغير الله ، وتريك نعمة الله فتستحى أن تجحد نعمة الله ، وتستحى أن تتجه لغير الله « انما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم ، وإذ تليت عليهم آياته زادتهم إيمانا وعلى ربهم يتوكلون » .

وذكر له الصلاة : وأنها خمس مرات فى كل يوم وليلة ، والصلاة نور لصاحبها وبرهان على صدق إيمانه ، ونجاة له من الكروب والشدائد ، هى سلوة المحزون يخرج بها من هموم الدنيا وأكدارها وهى مراقبة لله تحول بين العبد وبين عصيانه ، وقد كان النبى صلى الله عليه وسلم إذا حزبه أمر فزع إلى الصلاة ، وكان يقول « جُعلتْ قرة عينى فى الصلاة » . ويقول الله عز وجل « إن الانسان خلق هلوعا ، إذا مسه الشر جزوعا ، وإذا مسه الخير منوعا إلا المصلّين الذين هم على صلاتهم دائمون » ، وقد قرنها الله بالصبر ، وجعلها معه عُدةً يُستعان بها على مشاق الحياة ومتاعبها « واستعينوا بالصبر والصلاة » .

والصلاة طهرة لصاحبها من أدران الأخلاق الفاسدة وقد شبهها رسول الله صلى الله عليه وسلم بنهر يغتسل فيه الانسان كل يوم خمس مرات، وفيها يقول الله عز وجل « إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر »

وذكر له الزكاة ، والزكاة حق الفقير على الغنى ، ينزع بها الله الشح من نفوس الأغنياء وينزع بها الحقد من قلوب الفقراء فيلتقى الجميع إخوانا فى الله متحابين فى الوطن .

ثم ذكر له بعد ذلك ملاك الأمر كله : العدل والرفق ، فحذره من أخذ جيِّد الأموال باسم الزكاة ، وحذَّره من الظلم عامة ، وصور له المظلوم حين تنقطع به أسباب الانتصاف ولا يجد ملجأ إلاّ الله ، وقد ضاقت عليه الأرض بما رحبت فاذا الحجب بينه وبين ربه الذى يعلم كيف ظُلم ، ويعلم كيف عَجَز عن رد مظلمته ، ويغار عليه ، قد تكشفت ، وإذا المسافات قد طويت ، وإذا الدعوة من قلب حار تنفذ إلى أقطار السموات فيتلقاها العدل الالهى وويل يومئذ للظالمين !

فيأيها الحكام فى الأقاليم ، يأيها المديرون والمأمورون والعمد والرؤساء فى المصالح والأعمال :

هذا دستور نبيكم لمن كان يناط به مثل أعمالكم ، فاجعلوه دستوركم ، وكونوا قدوة للناس فيه ، واللهَ اللهَ فى الصلاة . والله الله فى الزكاة . والله الله فى عباد الله !

استباحة الأموال بحكم المناصب

« عن أبي حميد الساعدي رضي الله عنه قال : استعمل رسول الله صلى الله عليه وسلم ابن اللُّتْبِيَّة على صدقات بني سليم — أي ولاه جباية الصدقات ممن تجب عليهم — فلما جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم وحاسبه قال : هذا الذي لكم وهذه هدية أهديت لي، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « فهلا جلست في بيت أبيك وبيت أمك حتى تأتيك هديتك إن كنت صادقا » يريد أن يقول له : على فرض أنك صادق في أنه هدية فما أهدى إليك إلا بحكم منصبك ثم قام رسول الله صلى الله عليه وسلم فخطب الناس وقال بعد أن حمد الله وأثنى عليه : « أما بعد . فاني أستعمل رجالا منكم على أمور مما ولاني الله ، فيأتي أحدكم فيقول : هذا لكم وهذه هدية أهديت لي ، فهلا جلس في بيت أبيه وبيت أمه حتى تأتيه هديته إن كان صادقاً ! فوالله لا يأخذ أحدكم منها شيئاً بغير حقه إلا جاء الله يحمله يوم القيامة ، فلاعرفن أحداً منكم لقي الله يحمل بعيراً له رغاء (الرغاء صوت البعير) أو بقرة لها خوار (الخوار صوت البقر)

أو شـــاة تَيْعَر (اليُعار صوت الغنم) ثم رفع يديه إلى السماء حتى رؤى بياض إبطيه وهو يقول « ألا هل بلغت ! »

* * *

كلام غنى بنفسه عن الشرح والبيان . وهو مثل حىٍّ قوى يضربه النبي صلى الله عليه وسلم من نفسه للخلفاء والولاة من بعده فى مراقبة العمال ، ومحاسبتهم على أعمالهم التى يولونهم إياها فهو ينكر أشد الانكار على ذلك العامل الذى أقامه فى جباية الأموال ينكر عليه أن يصل إليه شىء من خَلق الله لا يكون ذلك إلا بحكم منصبه ، فقد اتخذ منصبه حبالة للإثراء على حساب العمل لله وفى سبيل الله، ويقول له : لو قعدت فى بيت أبيك وأمك ، ولم تـوَلَّ عملا مثل هذا أكان يعرفك أحد ؟ أكان يهدى إليك أحد ؟ ثم يقوم فيخطب الناس فى مثل هذا الشأن ، فيصوِّر لهم سوء عاقبته ، يوم يأتى كل من أخذ شيئاً عن هذه الطريق حاملا ما أخذ على كتفيه ، مفتضحاً أمره ، ذائعاً بين الخلائق جُرمه ، ومصداقه قوله تعالى فى شأن الغالّ — وهو من يخون فى أموال الله — « وَمَنْ يَغلل يأتِ بما غَلَّ يومَ القيامة ثم تُوفى كلُّ نفسٍ ما كسبت وهم لا يظلمون » أى يأتى به حاملا له على ظهره ورقبته معذباً بحمله مروَّعاً بصوته ، موبخا بإظهار خيانته . ثم يشهد النبي ربه بعد

ذلك على أنه قام بمـــا عهد اليه من تبليغ الأحكام والتحذير من الطغيان والآثام .

* * *

أما بعد : فاذا كان هذا شأن ما يؤخذ باسم الهدية من أموال الأفراد فما بالنـا بما يؤخذ بالظلم ، والرشوة ، والاختلاس ، من نفس أموال الله التى ربط بها مصالح عباده ؟

فاللهم ارحم عبادك وطهرهم من هذه الأرجاس .

obeikandl.com

الرسول يحذر المتخاصمين

طرق الخداع والتلبيس على القضاء

كان النبي صلى الله عليه وسلم ذات يوم فى حجرة زوجه أم سلمة رضى الله عنها فسمع ببابها نزاعاً ارتفعت فيه الأصوات ، وعلا بعضها على بعض فخرج اليها فاذا بهم خصوم يتنازعون حقوقا بينهم ، وقد جاءوا اليه صلى الله عليه وسلم ليفصل بينهم فيها ، فابتدرهم بقوله : « إنما أنا بشر ، وإنه يأتينى الخصم ولعلّ بعضكم أن يكون ألْحَنَ بحجته من بعض فاحسب أنه صادق ، فأقضى له بذلك فمن قضيت له بحق مسلم فانما هى قطعة من النار ، فليأخذها أو ليتركها »

* * *

هذا الحديث يقرر أصولا لها خطرها فى جانب من جوانب هذه الحياة الاجتماعية . فالحياة الاجتماعية لا تخلو من خصومات ، والخصومات مجال واسع للبغى ، واستجابة الأهواء ، ولا بد للخصومات من قضاء يفصل فيها ، ويحسم ما بين الناس من نزاع ، والقضاء لايستأصل الشرور والآثامَ إلاّ إذا وقع مُحِقاً للحق ، دامغاً للباطل ، مُنْصِفاً للمظلوم ، رادعاً للظالم . عندئذ تطمئن

القلوب ، وتسكن النفوس ، ويقف كل إنسان عند الحق الذى يعلمه فيما بينه وبين الله ، ويتمتع كل إنسان بحقه الذى يؤمن به . ولهذا كله ينصح النبي صلى الله عليه وسلم الخصومَ بأنه — وهو فى موقف القضاء بينهم — بشر مثلهم ، لا يعرف دخائل النفوس ، ولا خفايا الشئون ، فليس له إلا ماظهر بالبينات ، وقد يكون بعضُ الخصوم من أرباب الحيل والخداع ، وأرباب القوة والبيان ، فيستطيع بقوة بيانه ، وطول مرانه ، أن يستر الحق عن القاضى ، وأن يُلبس الباطل ثوب الحقيقة ، فيقضى القاضى له بما لا يستحقه قبَل أخيه ، فيأكله زوراً وبهتانا ، ويَصْلَىَ به فى الآخرة لهباً وناراً .

وفى هذا تحذير شديد لهؤلاء الذين يستخدمون طرق التزوير فى الخصومات والدفاع عن الباطل ، طمعاً فى متاع زائل لا يغنى عن الحق ولا عن عذاب الله شيئا .

والرسول الكريم يقرر أنه لا مسئولية على القاضى إذا أخطأ الحق مادام يقضى بما يسمع من حجة ، وإنما المسئولية كل المسئولية على هؤلاء الذين يتخذون الاحتيال سبيلا لأكل أموال الناس بالباطل عن طريق القضاء ، ويعلنهم أن القضاء لا يُحلُّ حراما ، ولا يُحرِّم حلالا ، وأنه يجب على من صدر له حكم عن طريق التزوير والاحتيال أن يراجع نفسه ، وأن يتحلل من ذلك الإثم برد الحق إلى صاحبه ، فان الرجوع إلى الحق خير من التمادى فى الباطل .

والرسول صلى الله عليه وسلم يضرب — بنصحه للخصوم وتحذيره إياهم أساليب الخداع والتزوير فى التقاضى — مثلاً للقضاة والمحكَّمين فيما يجب عليهم من النصح للخصوم والتحذير من استعمال الخداع والتزوير، ويقرر أن مهمة القاضى ليست قاصرة على استماع البينات ، فيما يرفع إليه من خصومات ، وإصدار الأحكام فيها بناء على ماسمع ، وإنما يجب عليه قبل ذلك أن يمحَض المتنازعين النصحَ ، وأن يرشدهم إلى عاقبة التضليل والاحتيال ، فلعلهم بذلك يوفرون على أنفسهم أسباب اللجاج الدائم ، والشقاق المستمر ، والنفقات الطائلة التى يبذلونها فى توكيل المحامين البارعين ، واستئجار الشهود المزوَّرين ، ولعلهم يحفظون أنفسهم من الإثم الكبير الذى يلحقهم جزاء تضليلهم القاضى ، وجزاء استلابهم حقوق الناس بغير حق .

* * *

أيها المحتالون . أيها المزورون ، ويامن تلبسون الحق بالباطل : قد سمعتم قول الرسول فيكم فاسمعوا قول الله : « ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل وتدلوا بها إلى الحكام لتأكلوا فريقا من أموال الناس بالإثم وأنتم تعلمون » .

السكوت عن المنكرات سبب في البلاء العام

« عن النعمان بن بشير رضى الله تعالى عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : مثل القائم على حدود الله ، والواقع فيها ، كمثل قوم استهموا على سفينة فصار بعضهم أعلاها ، وبعضهم أسفلها ، وكان الذين فى أسفلها إذا استقوا من الماء ، مرّوا على مَن فوقهم ، فقالوا : لو أنا خرقنا فى نصيبنا خرقا ولم نؤذ من فوقنا فان تركوهم وما أرادوا هلكوا جميعاً وإن أخذوا على أيديهم نجَوْا ونجَوْا جميعاً » .

* * *

يظن كثير من الناس أن هذه الحياة شخصية فردية ، لا يُسأل الانسان فيها عن غيره ، وإن صح أن يسأل فعن أهله وذويه فقط وليس عليه شيء من حساب أخوانه المؤمنين أو المواطنين ، وبذلك تراهم يؤثرون الانكماش والانقطاع ؛ فلا يأمرون بمعروف ، ولا ينهون عن منكر ، ولا يقدمون نصحاً ولا إرشادا ، ويبررون هذا الموقف السلبي بألفاظ اخترعوها ، وأكثروا من إلقائها بين الناس حتى ظن من لا يعرف الحقيقة فيها أنها من الدين : يقولون :

نفسى نفسى . دع الخلق للخالق . أقام العباد فيما أراد . عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل . والواقع أن هؤلاء بموقفهم هذا يقطعون ما أمر الله به أن يوصل من التضامن بين المؤمنين والتناصح والتعاون على البر والتقوى ، وقد جعل الله ذلك كله شأنا من شئون الإيمان ، وقرره فى كتابه بأبلغ عبارة وأوضح أسلوب ، بل قدمه على الصلاة والزكاة . فقال جل شأنه : « والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض ، يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة » وجاء فى كلام الرسول أنه الدين كله إذ يقول « الدين النصيحة » والواقع أيضا أنهم بموقفهم هذا يغرسون فى نفوس الناس أن الدين يُقر أفعالهم كيفما كان نظر الشارع إليها : نسمع العامة يقولون : لو كان هذا مخالفاً للدين لما سكت عليه فلان وفلان ، ولا حضره فلان وفلان ، وقد كان من أشد ما خشاه النبى على أمته أن تعتقد ماليس مشروعاً مشروعا ، أو تعتقد المنكر معروفا ، والواقع أيضاً أنهم بموقفهم هذا كأنهم يجادلون بغير علم ، أو يدفعون عن أنفسهم بغير حق . فالخلق حقيقة للخالق ولكن الخالق أمر المخلوق أن ينصح أخاه ، وحقاً : أقام الله العباد فيما أراد ، ولكن مما أقام فيه عباده أن يتواصَوْا بالحق ، وأن ناهَوْا عن المنكر . وقد صح عن أبى بكر الصديق رضى الله عنه انه قال : أيها الناس ، إنكم تقرأون هذه الآية وتضعونها فى غير

موضعها « يأيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم » وإنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « إن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه أو شك أن يعمهم الله بعقاب منه » .

وهذا هو نبينا صلى الله عليه وسلم يصور لنا سوء عاقبة الذين يختارون لأنفسهم هذا الموقف السلبي ، يصوره فى تشبيه رائع يأخذ بالقلوب، ويجسم المعنى، ويقول: إن الفريق الذى فى أعلى السفينة إذا ترك الذين هم فى أسفلها يخرقونها غرقت السفينة وغرق من فيها جميعاً وإذا هم منعوهم سلمت السفينة وسلموا جميعاً .

فيأيها الذين يختارون لأنفسهم موقف الانقطاع والانكماش عن إرشاد الناس ، ويأيها الذين يُثَبِّطون عن الدعوة إلى الله :

إنكم لمسئولون عن أنفسكم وعن غيركم ، فلا تحملوا أثقالكم وأثقالاً مع أثقالكم .